

# أثر الظروف المناخية في نشاط سكان الصحراء الجزائرية ابان العصر النيوليتي (عناصر للتفكير والتأمل)

د. الربيع بن عيسى عولمي  
جامعة الحاج لخضر-باتنة

## ملخص:

تركز هذه الدراسة على الظروف البيئية والمناخية وأثرها في توطين واستقرار سكان الصحراء الجزائرية وعلاقة ذلك بالنشاط البشري، كالرعي والزراعة وصيد الأسماك والحيوانات ابن العصر الحجري الحديث (النيوليتي) بأقسامه ومراحله المختلفة. إن الصحراء الجنوبية كانت تمثل في هذه الفترة فسيفساء من شعوب متعددة، إلا أن لها نمط معيشي متقارب، وتمارس نفس النشاط الاقتصادي أين يمثل الرعي وتربية الحيوانات النشاط الأكثر ممارسة، لكن يبقى القنص والصيد أيضا من النشاطات التي تحتل أهمية خاصة، إلى جانب بداية تدجين الزراعة. يبدو أن الصحراء خلال هذه الفترة كان بمثابة بوتقة انصهرت فيها شعوب متعددة ومن أصول متنوعة، أين بدأ الإعداد للمشهد البشري البارز مع بداية الفترة التاريخية.

## L'effet des conditions climatiques sur l'activité de la population du Sahara Algérien pendant le Néolithique (Éléments de réflexion)

### Résumé :

Cet essai vise à étudier les conditions écologiques et climatiques, et leurs rôle dans l'occupation et la sédentarisation de divers peuples dans la partie méridionale du Sahara Algérien, notamment ceux qui ont rapports à l'activité humaine, comme l'élevage, l'agriculture, la pêche et la chasse pendant le Néolithique.

Le Sahara était à la fin du Néolithique une vraie mosaïque de peuples ayant un mode de vie similaire, pratiquant la même activité économique où l'élevage est l'activité dominante, mais aussi la chasse et la pêche qui gardent leur importance. Il parait donc que le Sahara fut vraiment un creuset où se fondent des populations d'origine diverses, ce qui a permis à l'homme saharien d'entrer d'emblée à l'époque historique

### مقدمة:

تساهم العديد من الأبحاث الحديثة في تسليط الضوء على الصحراء الجزائرية وسكانها خلال العصر النيوليتي، إلا أنها تضع الكثير من المعطيات التي لم تصبح مقبولة بصيغتها القديمة محل نقاش وجدل بين الباحثين، كمفاهيم: "النيوليتي ذو التأثير ألقفصي" و"النيوليتي ذو التأثير الصحراوي السوداني" أو مفهوم "الخط المتموج" (Wavy Line)<sup>(1)</sup>، هذه المفاهيم التي لم تصبح اليوم شائعة الاستعمال. لذلك تطرح عدة تساؤلات حول المدة الزمنية التي تمكن فيها الإنسان من التوطن والاستقرار بالصحراء خلال هذا العصر والتي قد تصل إلى حوالي الألف الثامنة ق.م.

وإلى وقت قريب، دأب علماء الآثار على تحديد بداية النيوليتي الصحراوي بالألف السابعة (7) ق.م ومواقعه ربما تكون حول الكتل الجبلية الوسطى وما حولها جنوب الجزائر، إلى ضفاف نهر النيل شرقا. وخلال هذه الفترة، استقرت مجموعات بشرية إفريقية متأثرة بثقافات الخرطوم جنوب الصحراء الكبرى، والتي اتجهت صعودا نحو الشمال حسب خطوط العرض إلى أن احتكت بخلف (ذرية) القفصيين الذين احتلوا كامل الصحراء الشمالية.

وما يثير الانتباه فعلا، هو ذلك التجانس الكبير بين الحضارتين القفصية والصحراوية-السودانية، مما دفع بعض الباحثين إلى استعمال مصطلح "أكواليتيك-Aqualithic" والذي يميز الثقافات الجنوبية التي يعيش سكانها على القنص وصيد الحيوانات والأسماك حول البحيرات الكبرى.

إن هذا التجانس أصبح اليوم محل تساؤلات كثيرة مما يتطلب إعادة تجديد الفرضيات اعتمادا على الأبحاث في كل المجالات العلمية الحديثة والتي تستخدم العلوم العصرية، كعلم مناخ العهود القديمة (Paléoclimatologie)، والأنثروبولوجيا الفيزيائية، والحضارات. يتميز هذا العصر، بتجانس ثقافي كبير وتقارب بين الثقافات من خلال: تعدد مواضيع فن الرسوم الصخرية "Gravures Rupestres"، وأشكال وزخارف الفخاريات، وكثرة التماثيل الحيوانية الشكل (Zoomorphes) المصنوعة من الطين المشوي، والطقوس الجنائزية، وتطور الحياة الحضرية، وميلاد عصر المعادن.

نخلص إلى نتيجة هامة وهي أن الصحراء الجزائرية كانت تمثل في هذه الفترة ما يشبه فسيفساء (Mosaïque) من شعوب متعددة، إلا أن لها نمط معيشي متقارب، وتمارس نفس النشاط الاقتصادي أين يمثل الرعي وتربية الحيوانات النشاط الأكثر ممارسة، لكن يبقى القنص والصيد أيضا من النشاطات التي تحتل أهمية خاصة، إلى جانب بداية تدجين الزراعة. ويبدو أن قلب الصحراء خلال هذه الفترة كان بمثابة بوتقة انصهرت فيها شعوب من أصول متنوعة، أين بدأ الإعداد للمشهد البشري البارز مع بداية الفترة التاريخية.

### أولا-الثوابت والمتغيرات البيئية القديمة:

نشير في البداية إلى أن هناك علوم حديثة تناولت البيئة والسكان في الصحراء الجزائرية ومنها:

#### 1-مناخ العهود القديمة: (Paléoclimatologie)

من المعروف أن المناخ في الصحراء عموما لا يتطور بنفس الطريقة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب<sup>(2)</sup>، لذلك نجد أن الصحراء الشمالية الشرقية (من الصحراء الشرقية الجزائرية إلى الصحراء الغربية المصرية) كانت خلال النصف الأول من فترة الهولوسان (Holocène) منطقة شبه جافة (semi-aride). وفي المقابل، نجد أن بعض المناطق في الصحراء الجنوبية بقيت رطبة جدا بالقدر الكافي الذي سمح لفرس النهر-hippopotame- بأن يعيش إلى أواخر الألف الرابعة ق.م بل وإلى الألف الثالثة ق.م.

#### 2-الأنثروبولوجيا الفيزيائية:

حاولت الباحثة الأنثروبولوجية شاملا<sup>(3)</sup> (M.C.Chamla) سنة 1968م جمع بيانات مشتتة عن عدة مواقع بدول الساحل الإفريقي بموريطانيا والنيجر ومالي، وفي الجزائر ركزت الباحثة على موقع تين هاناكاتن بالطاسيلي (Tin hanakaten) والذي يقع قرب الحدود الشمالية للنيجر، وهنا تبرز حقيقة معقدة، حيث وجد أن عدة شعوب من أصول متنوعة تعايشت أو تعاقبت في هذه المناطق. وهناك عناصر ثقافية يمكن أن تنوب عن الأنثروبولوجيا الفيزيائية كالرسوم الصخرية (Rupestres) بمنطقة الطاسيلي حيث طبيعية الأشكال البشرية (Naturalisme) تسمح أحيانا بتحديد النوع الفيزيائي، مع تمثيل عربات المحاريرين الليبيين، أو تمثيل خط التيفيناغ (Tifinagh). كما تبين بعض النصب الجنائزية بوضوح انتقال مجموعات من البربر القدماء (Paléo berbères) قبل 4000 ق.م ومجموعات أخرى ما قبل البربر (Protoberbères) بعد 4000 ق.م وهم يتجهون نحو الجنوب.

#### 3-الثقافات:

يمكننا من خلال الدراسات الأحادية (المونوغرافية) (Monographie) الجهوية أو المحلية ومضامينها أن نرسم خريطة لثقافات النيوليتي المتعددة فترة لا بفترة. حيث تبدو الصحراء وكأنها فسيفساء بشرية عملاقة (Mosaïque): ولدت مع نهاية فترة

جفاف دامت عدة آلاف من السنين. ومع عودة الجفاف منذ 4000 سنة قبل الميلاد في الشمال وما بين 4000 إلى 2000 ق.م في الجنوب حسب المناطق، حيث تمثل كل منطقة منها حالة خاصة<sup>(4)</sup>.

ويتضح في هذا النطاق أن الصحراء الجنوبية كانت ومنذ أمد بعيد قد مثلت حالة من الفقر مقارنة بالصحراء الشمالية (في الجزائر، ليبيا ومصر). فقد ظهرت الصحراء الجنوبية خلال فترة الهولوسان (Holocène) وكأنها مجموعة بشرية غنية خلال الفترة من 9500 ق.م إلى 3000 ق.م<sup>(5)</sup>، وهي فترة تفوق بكثير مثلتها بالصحراء الشمالية والسبب في ذلك ربما يعود إلى الظروف المناخية. والحقيقة أن إفريقيا الشمالية دخلت الفترة التاريخية مبكرا. إن الصحراء الجزائرية كانت دائما متنوعة جغرافيا إذ تجاورها عدة مظاهر تضاريسية نذكر منها:

- كتل جبلية مرتفعة مثل هضبة عير (Air - شمال النيجر) والتي يصل ارتفاعها إلى 2000 م.
- جبال تبستي (شمال تشاد) ارتفاعها يصل إلى 3400م، كما نجد كتل جبلية صغيرة منعزلة وسط سهول غير ملائمة للإنسان مثل أدرار الإيفوراس (Adrar des Iforas) شمال شرق مالي، وسهول تارميت (Termit) غرب النيجر.
- هضاب واسعة تخترقها أودية ومحاطة بمنخفضات كالأدرار، وهضبة إينيدي (Ennedi) شرق تشاد.
- سهول رملية واسعة غير قادرة على حفظ المياه وبها منخفضات رطبة كصحراء تانزروفت جنوب غرب الجزائر، وتينيري (Ténéré) (شمال النيجر).

- شبكات هيدروغرافية (Hydrographiques) ذات أهمية كبيرة طوال فترة الهولوسان كله، ومن الشبكات الأكثر اتساعا في الصحراء وادي الأزواك (Azawagh) الذي يصرف المياه نحو النيجر انطلاقا من منحدرات جنوب الهوقار، وغرب هضبة العير (Air) وهضبة الإيفوراس.

- البحيرات القديمة (Paléo lacs) وتكون أحيانا ضخمة، وأحيانا أخرى صغيرة الحجم، وهي مجسدة اليوم بمالة من صخور المشطورت (diatomite) (وهي صخور رملية من أصل عضوي) مغمورة في الرمال.
- الساحل الأطلنطي والذي يتميز بثروة إيكولوجية هائلة.

مما سبق يتضح أن الصحراء الجنوبية كانت في العصور القديمة فسيفساء جغرافية، إلا أن الصحراء الحالية أخفت مظاهرها، لكن منذ 10000 ق.م إلى 2000 ق.م (وربما في فترة مبكرة، لأن الرطوبة بدأت دون شك منذ 15000 ق.م في الكتل الجبلية)، فقد لوحظ عدم التنوع في المظاهر الطبيعية.

إن التعدد هو المسيطر، حيث تجاور المساحات الواسعة من البحيرات: عروق يحتمل أنها كانت مكسوة بالنباتات، وجبال يفترض أن تكون مغطاة بالثلوج، وسهول مكسوة بالشجيرات، وأنهار قوية الجريان، ومحيط غني بالأسماء... الخ.

إن هذا التنوع الذي عرفته الصحراء لم يكن جغرافيا فقط بل كان أيضا كرونولوجيا (أي متسلسل زمنيا)، فطوال فترة الهولوسان بأكمله، لم يتوقف المناخ عن التطور، حيث انتقل من رطوبة قصوى في حدود 8500 ق.م إلى فترات جفاف قصيرة، ثم إلى تبعات (نتائج) إيكولوجية رئيسية نحو 7500، 6000، 4000 أو 2800 ق.م قبل الجفاف الحالي والذي ينبئ خطأ بأنه حالة دائمة<sup>(6)</sup>. وحسب المؤشرات السابقة، فإن المناخ الرطب هو الذي ساد الصحراء الجزائرية مما جعل الثروة النباتية والغابية تغطي كامل الكتل الجبلية الجنوبية<sup>(7)</sup>. وقد استمرت تلك الثروة الغابية تكسو جبال الهوقار والطاسيلي حتى الألف الثالثة ق.م وهي الفترة التي بدأ فيها الجفاف ينتاب المنطقة الصحراوية<sup>(8)</sup>. ومن الخطأ أن نؤكد وبشكل قاطع، أنه في حدود 8500 ق.م أي في فترة الرطوبة القصوى، أن كمية التساقط كانت تبلغ 350 أو 600 أو 1000 ملم بالصحراء الجنوبية، إلا أن هذه الكمية بلغت أقل من 100 ملم في حدود 4000 ق.م

إن مناخ هذه المنطقة غير متجانس، وحاليا نلاحظ أن خط التماطر (خط المطر المتساوي) لا يتبع المتوازيات، خاصة أن المظاهر التضاريسية تحدث اضطرابا للرسم البياني (schéma): فالجبال تشكل حاجزا تمنع السحب المحملة بالرطوبة من الانتقال، وتلعب دور خزانات المياه بتوزيع كميات التهاطل في مناطق بعيدة تعرف بسهول المياه الدخيلة (الطارئة)-Allogène- وضمن هذا التنوع، يمكننا مضاعفة الأمثلة والنماذج إلى مالا نهاية، هذا ما أعطى إلى المشهد البشري في الصحراء الجنوبية خلال عصر النيوليتي تعقيداته. لا يمكننا أن نفهم ذلك دون أن تكون لدينا فكرة واضحة عن الظروف المناخية التي سادت الصحراء في العصور القديمة في كل منطقة منها وفي كل فترة.

## **ثانيا- دخول العصر الحجري الحديث "النيوليتي" والمرحلة القديمة- Néolithique Ancien:**

يدعى العصر الحجري الحديث كذلك بالنيوليتي وهو آخر مرحلة من العصور الحجرية، ويتسم بعدة خصائص تجعله يتميز عن المراحل السابقة، فخلال هذه الفترة من الحضارة الإنسانية حدثت تغيرات جذرية في حياة الإنسان ونمط المعيشة. ومما ساعد على حدوث هذه الثورة النيوليتية هو قيام المناخ الأنسب في حدود 12000 سنة وأبرز مميزات النيوليتي: ظهور أدوات حجرية جديدة، وتقنيات صناعة الأواني الفخارية التي بدأ الإنسان النيوليتي ينتجها لتخزين الحبوب والسوائل، وذلك بعد اكتشافه للزراعة واستئناس الحيوانات<sup>(9)</sup>. وهناك عدة مواقع تشهد عن قيام الثورة النيوليتية في الصحراء الكبرى عموما والصحراء الجزائرية على وجه التحديد سنذكرها في حينها.

أما فيما يتعلق بعمليات الإعمار فقد شهدت بداية عصر الهولوسان في الصحراء الوسطى والجنوبية عملية تعمير جديدة، والذي بعد حلقات محدودة جدا من العصر الحجري القديم المتأخر، تطور إلى نيوليتي ذو ثروة كبيرة، إلا أنه بداياته كانت مظلمة وغير واضحة المعالم، وقد تم التعرف عليها بطريقة مجزأة وتطرح تساؤلات عديدة.

### **I- العصر الحجري القديم المتأخر (ما بعد الباليوليتي) والصحراء الجنوبية:**

#### **1- نهاية فترة البلايستوسان :**

شكل موضوع تحديد الزمن الجيولوجي الرابع-الكواترنيري-(Quaternaire) نقاشا وجدالا حادين بين العلماء وعقدوا لأجل ذلك عدة مؤتمرات علمية، طرحت خلالها مشكلة الحد الأدنى للزمن الرابع واتضح أنه من الصعب جعل حد زمني دقيق بين الزمن الثالث والرابع، حيث أن الحد الأدنى للزمن الرابع يختلف باختلاف الباحثين أنفسهم واختلاف المناطق التي تجري فيها الأبحاث وكذلك حسب المقاييس المستعملة لتحديده ( مناخي - مستحاثي - جيوفيزيائي ). وفي النهاية اتفقوا سنة 1973م (مؤتمر كريس شورش) على أن الزمن الجيولوجي الرابع يحتوي على فترتين زمنيتين غير متساويتين: الفترة الأولى تدعى البلايستوسان (Pléistocène)، والثانية تدعى الهولوسان (Holocène)، والفصل الزمني بينهما يصادف نهاية آخر عصر جليدي وقبل بداية المناخ الأنسب أي في حوالي 11800 ق.ح. (9800 ق.م).<sup>(10)</sup>

لا توجد هناك أية اكتشافات أركيولوجية في الصحراء تخص الفترة من 15000 إلى 10000 ق.م في حين أن هوامشها كانت مأهولة بالسكان (على سبيل المثال الحضارة الإيبيروموريزية -Ibéromaurisienne- أو الإيبيرومغربية<sup>(11)</sup>) في شمال إفريقيا. إذن يبدو أن هناك فجوة في الصحراء بين الحضارة العاترية والنيوليتي، حتى ولو وجدت في بعض المناطق، صناعات معاصرة للعاترية وصناعات سابقة لها، فإنه لا يبدو أن تكون هناك صلة بين العاترية والعصر الحجري القديم الأعلى، بل وحتى العصر الحجري القديم المتأخر. لا نعرف في إفريقيا الشمالية التعاقب بين الحضارتين العاترية والإيبيروموريزية (انطلاقا من مواقع تازا، عين أغال، تافورالت، تامارا، رأس تنس ...)

ومن خلال الدراسات النادرة للطبقات الجيولوجية الصحراوية، لا نلاحظ التعاقب والتتابع المباشر إلى الحضارة العاترية، حيث نجد بموقع تين هاناكاتن (جنوب الطاسيلي) طبقة سميكة تفصل العاترية عن النيوليتي في المرحلة القديمة (حوالي 9400

ق.م) وعدم وجود أية صناعة تعود إلى العصر الحجري القديم المتأخر. لهذا يمكننا اعتبار هذه الإشكالية، فرضية طرحها الباحث تيلي<sup>(12)</sup> (Th.Tillet) وأعاد طرحها حديثا الباحث ديتور<sup>(13)</sup> (O.Dutour) مفادها أن العاترية استمرت في المناطق الجبلية بالصحراء الوسطى خلال الفترة القصوى للجفاف في نهاية البلايستوسان (20.000 – 15000 ق.م في الكتل الجبلية، و13000 ق.م في السهول المجاورة). والملاحظ أيضا قلة مظاهر الحضارة العاترية داخل الكتل الجبلية الوسطى، وغياب تام للعصر الحجري القديم المتأخر (épipaléolithique).

إن انحسار الجفاف بصورة نهائية عن سهول الصحراء الشمالية بعد 14000 ق.م كان أمرا ممكنا – فالفترة القصوى للجفاف جاءت نوعا ما متأخرة – أما الجفاف في نهاية البلايستوسان فهذه حقيقة حتى وإن كانت الأعمال والأبحاث الحديثة قد قلصت مدته وأهميته.<sup>(14)</sup>

## 2-العصر الحجري القديم المتأخر في بداية الهولوسان:

يقصد بالهولوسان الفترة الثانية من الزمن الرابع، بدايتها تصادف نهاية العصر الجليدي الأخير المعروف بالفورم (Würm)<sup>(15)</sup>، يعني مباشرة قبل التحسن الكبير للمناخ. ومن الناحية الجيولوجية تعني تسمية الهولوسان تلك الفترة التي تكونت فيها التوضعات والرواسب ما قبل الحالية والحالية. ومن الناحية المناخية الهولوسان يقابل فترة هامة مما بعد الجليدي وفترة قصيرة من المرحلة الجليدية المتأخرة<sup>(16)</sup>.

تظهر بداية الهولوسان في الصحراء بطريقة يمكن أن تفجر العصر الحجري القديم المتأخر، حيث نجد في الفترة ما بين 10000 إلى 7000 ق.م إن لم نقل 6000 ق.م كل أنواع الصناعات والتي تبدو أنها مستوحاة من نهاية العصر الحجري القديم. ونجد صناعات أخرى نيوليتية، لأن المرحلة القديمة من النيوليتي في الكتل الجبلية الوسطى تعاصر الحضارة القفصية (Capsien) بل هي أقدم من عدد من الثقافات القديمة المتأخرة في الهوامش الشمالية للصحراء.

لكن هل تحليل الصناعات فقط وثيقة الصلة بالموضوع تسمح لنا بتحديد تعريف دقيق للحضارات الصحراوية؟ وبالرغم من وجود مفاهيم أخرى اقتصادية، ثقافية وبالأخص الديموغرافية، ألا تكنسي هذه المفاهيم هي الأخرى أهمية ما؟

## II-العصر الحجري الحديث (النيوليتي) في الصحراء (مشكلة التعريف):

دأب علماء الآثار «Archéologues» على تعريف النيوليتي بأنه العصر الذي يتميز بـ: أدوات حجرية مصقولة، السهام البيفاسية «Bifaciales» (أي ذات وجهين)، أدوات السحق، الخزف، التدجين، الزراعة والصيد، إلا أنه توجد في الصحراء في الفترة من 9500 إلى 2000 ق.م مظاهر متعددة، ونجد أن أغلب المعايير المذكورة أعلاه غير متوفرة. فالزراعة مثلا لم تظهر بشكل جلي قبل 3000 ق.م أما الاستئناس وتربية الحيوانات فلم تظهر قبل 4000 ق.م في جنوب وغرب الصحراء. أما ما تعلق بالصناعة الحجرية فإن عدة ثقافات حُرمت من أحد العناصر الصناعية، إذ اكتفت بأدوات بدائية (Rudimentaire)، ويعود ذلك إلى رداءة المادة الأولية المتوفرة في هذا المحيط<sup>(17)</sup>. ويلاحظ ندرة الخزف في الشمال، حيث توجد ثقافات الصيادين سواء كانوا رعاة أم لا إلى نهاية النيوليتي ومربي الحيوانات شبه المستقرين أو الرعاة تماما. ويمثل موقع زميلات البركة (Zmeilet el-Barka)<sup>(18)</sup> وهي مرتفعات تقع جنوب غرب ورقلة بجوالي 25 كلم في الصحراء الشمالية الشرقية للجزائر، أحسن مثال لهذه المجموعات البشرية والتي حددناها بطريقة سيئة<sup>(19)</sup>.

ويؤرخ لهذه الفترة من النيوليتي بجوالي من 5700 إلى 4800 ق.م، وتتميز بصناعة حجرية تحتوي على نصيلات ذات الظهر والحجر قرمييات الهندسية، وتتميز كذلك بندرة البقايا الفخارية وكثرة بيض النعام.

وتجدر الإشارة أنه توجد بعض المواقع التي تعتبر نيوليتية ذات تأثير قفصي لكنها لا تحتوي على فخار، وأغلب هذه المواقع تتواجد في منطقة أولاد مية بناوحي ورقلة، تؤرخ بجوالي 4720 إلى 4200 ق.م وتحتوي على صناعة حجرية تتكون من أدوات ذات

طابع ما بعد الباليوليتي مثل الحجر قزميات الهندسية (أي جد قزمية) Microlithe géométrique والنصليات ذات الظهر وكذلك أدوات نيوليتية مثل: رؤوس السهام في حين يلاحظ غياب الفؤوس المصقولة، والأواني الفخارية عوضت باستعمال بيض النعام كأواني حفظ السوائل.<sup>(20)</sup>

ويبدو إذن أنه من الملائم أن نبحت فيما يتعلق بالصحراء عن تعريف جديد للنيوليتي. لكن ليس من المضمون أن يكون تعريف معد وجاهز سلفا لأن درجة اكتساب أشياء جديدة وحديثة والتي تتميز عموما النيوليتي كانت متغيرة. لعبت الديمغرافيا دورا أساسيا في الاستقرار والتوطن، وهي ضرورية لإنجاز المكتسبات الثقافية والاجتماعية حسب كثافة السكن ومواطن المعيشة. ونجد كذلك أن مجموعات كبيرة من صيادي ما بعد الباليوليتي أصبحوا نيوليتيين (لكن في أي فترة تم ذلك وفي أي سياق؟) لا نعلم ذلك بالتحديد. ودون أدنى شك، وفي عدد من الحالات، فإن العملية كانت معكوسة لأسباب ربما مناخية بالدرجة الأولى.

إن الإبقاء على نمط معيشي قائم على صناعة الخزف، يعود بالدرجة الأولى إلى الظروف المناخية التي لا تسمح بالانتقال إلى نمط آخر، فطحانة الحبوب أو (تجارة الطحن) (Meunerie) أو الحياة الحضرية (Sédentarité) القائمة على الاستقرار لم تكن ممكنة، ومن ثم فإن البحث عن إدخال النيوليتي الصحراوي في إطار تعريف معتمد ووضع أساسا للشرق الأدنى أو أوروبا أمر غير وارد البتة .

### III- المرحلة القديمة من النيوليتي بالصحراء الوسطى والجنوبية :

#### 1- فرضيات الإعمار:

منذ 9500 ق.م، وربما قبل ذلك، كان النيوليتي حاضرا ومائلا في الطاسيلي والهوقار، وهضبة العير (Air)، وكتل ترميت (Termit) غرب النيجر في قلب الصحراء<sup>(21)</sup>. في حين نجد أن شمال إفريقيا ووادي النيل، فإنها لم تعرف النيوليتي إلا 2000 سنة بعد ذلك. وبعيدا عن المنطقة التي تعيننا والتي نحن بصدد دراستها، فإننا نلاحظ أن بداية النيوليتي في الشرق الأدنى قد حل محل الناطوفية في حوالي 10000 ق.م وليست لدينا أية معلومات عن الغابات الاستوائية ولا عن الساحل الإفريقي خلال هذه الفترة.

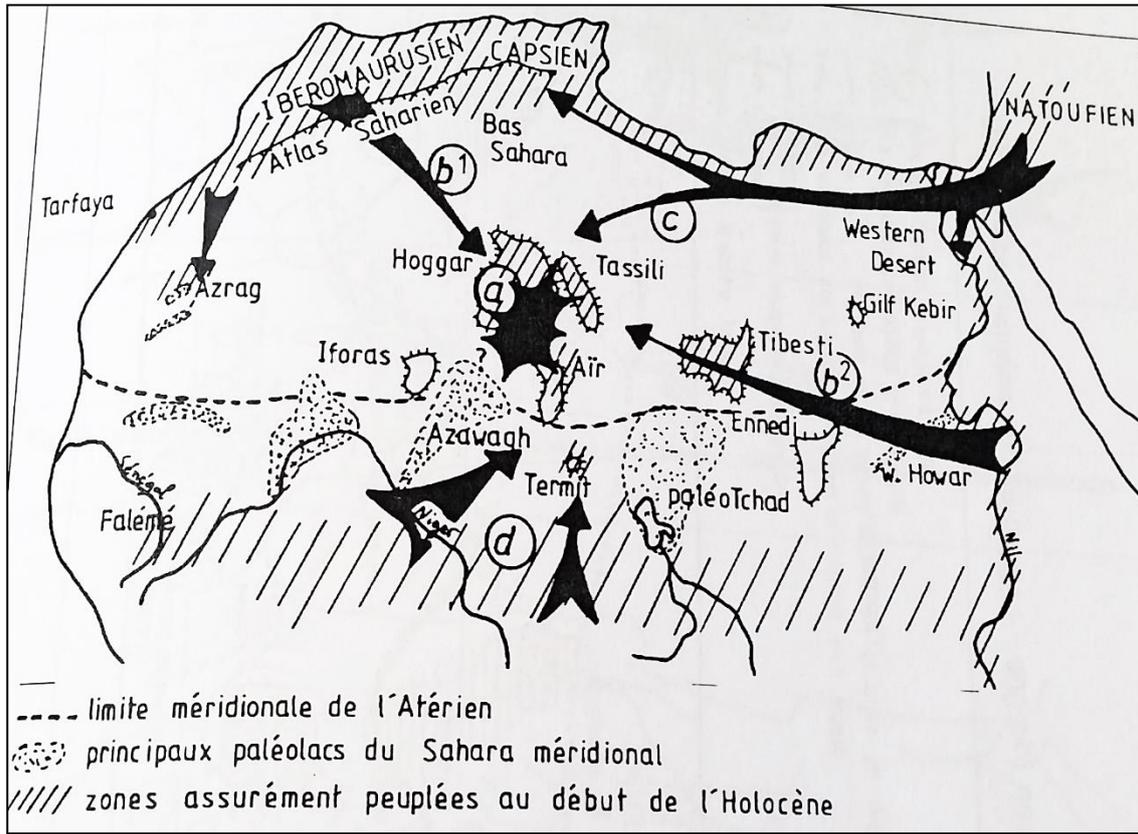
يبدو أن النيوليتي يتوفر على ذاتية ثقافية كبيرة، لأنه ابتكر الفخار-المعروف قبلا بالشرق الأدنى - إضافة إلى تقنيات عديدة، وأدوات حجرية، والتي من بينها رؤوس السهام البيفاسية (Biface)، والفأس المصقولة، وأجهزة السحق، حتى ساد الاعتقاد أن الزراعة قد دجنت في الصحراء في هذه الفترة البعيدة والأمر كذلك بالنسبة لتربية الحيوانات رغم غياب الأدلة المادية.

لا يوجد أي فعل أنثروبولوجي أو ثقافي يسمح بفهم أصول وجذور النيوليتي الذي بدأ يظهر جليا في حوالي 9500 ق.م، لذلك نطرح عدة تساؤلات: أين ومتى حدثت المحاولات الأولية؟ ومن هو إنسان هذه المرحلة الجديدة؟

نحن نعرف أن موقع تين هاناكاتن<sup>(22)</sup> (بالطاسيلي) كان أهلا بنموذجين من الإنسان (Types): النوع الأول الإنسان الإفريقي الزنجي (Mélano-africain) وهو مميز نوعا ما (أي أنه مميز من حيث الشكل والوظائف)، والنوع الثاني يحتمل أن يكون الإنسان شبه الأوروبي (Europoïde) والذي يتميز ببنية قوية.

والواقع أن الكتل الجبلية الوسطى التي تقع بين خطي عرض 18° و 25° شمالا يمكن أن تكون أهلة بالسكان في بداية عصر الهولوسان (أنظر الشكل 1) بطرق شتى منها:

أ-النسب والقرابة إلى العاترية: وذلك عن طريق مجموعات اتخذت من الجبال ملاجئ في فترة الجفاف القصوى مع نهاية البلايستوسان (Pléistocène)، وقد عرفنا أننا أن هذه الفرضية تفتقد إلى المصدقية حاليا.



شكل (1) فرضيات إعمار الصحراء في بداية الهولوسان

Vernet(R.), population de Sahara méridional à l'holocène, in CNRPAH, Alger, 2001, p. 183.

**ب- النسب والقرباية إلى الباليوليتي الأعلى:** إما بواسطة الإيبيرومورين، أو عن طريق النوبة Nubie (جنوب مصر) " كإنسان جبل سحابة، ووادي حلفا ": وقد استغلت مجموعات بشرية عودة الرطوبة في الصحراء في بداية فترة الهولوسان للتوطن في هذه المناطق. وفي كلتا الحالتين، فإننا أمام عملية إعمار من نفس الأصل، تنحدر من تنوع الإنسان العاقل العاقل<sup>(23)</sup> ( Homo sapiens sapiens) العاتري من المحيط الأطلنطي غربا إلى نهر النيل شرقا، وهذه الفرضية كان قد طرحها كل من فرمباخ (Ferembach.D) وديتور (O.Dutour).

**ج - النسب والقرباية إلى ما قبل المتوسطية:** لا يمكن أن نكون غير متأثرين بتلك الجدة والحداثة التي عرفها الشرق الأدنى وشمال إفريقيا في حدود 10000 ق.م والتي نذكر منها:

- ظهور النيوليتي في الصحراء المصرية.

- ظهور الحضارة القفصية في حدود 9800 ق.م، في شمال شرق الجزائر وتونس.

- تطور ذاتي للحضارة الإيبيرومورية (الإيبيرومغربية) التي تركزت في الشمال أكثر من الصحراء.

ألا يبدو أن أسلاف الناطوفيين-الذين ينتمون إلى إنسان ما قبل المتوسطي- كانت لهم بعض التأثيرات على وادي النيل، والصحراء الغربية المصرية، وكذا ميلاد الحضارة القفصية، سواء على الصعيد الانثروبولوجي أو على الصعيد الثقافي<sup>(24)</sup>، وهذا لا يمنعنا من القول بأن هؤلاء استطاعوا أن يبلغوا الكتل الجنوبية للصحراء الكبرى.

وهناك فرضية عمل تركز على انتشار مجموعات بشرية في الشمال الشرقي من الصحراء في بداية فترة الهولوسان، مع أقدار متنوعة، سواء ما قبل الباليوليتية، أو النيوليتية. إن التداخل الكرونولوجي للمواقع يرافع في هذا الاتجاه، وفي المقابل فإن السهول

الليبية والصحراء المنخفضة (Bas Sahara) في الجزائر بقيت جافة، وأعلى الأقل شبه جافة، لذلك كانت مهمة، في بداية فترة الهولوسان.

د -النسب والقراية إلى الجنوب: تقع الكتل الجنوبية الوسطى على نفس درجة عرض مدار السرطان أي (23° شمالا) فهضبة العير (Air) -أقصى شمال النيجر) تقع على خط عرض 20° شمالا وسهول ترميت (Termit غرب النيجر) تقع على خط عرض 16° شمالا.

لذلك نجد أن تجمع هذه المراكز هو بطبيعة الحال أقرب إلى الساحل الإفريقي منه إلى البحر المتوسط أو دلتا نهر النيل، لذا كان هذا الساحل أهلا بالسكان مع نهاية البلايستوسان.

ومن المنطقي أن نتصور صعود مجموعات بشرية مصاحبة لصعود المناخ -إن صح التعبير - أي تراجع الجفاف إلى الحدود الشمالية للساحل الإفريقي في (remontée climatique) بداية فترة الهولوسان.

ومن جهة أخرى، وعلى الصعيد الانثروبولوجي، فقد أشار الباحث الفرنسي ه. لوت (25) (H.L'hote) أن أقدم الهياكل العظمية لهذه المنطقة هي هياكل زنجية الشكل (Négroïde)، أما ثقافة الرسوم الصخرية التي تبدو الأقدم، هي تلك المسماة "ذوي الرؤوس المستديرة" (têtes rondes) والتي تمثل صلة القرابة مع الثقافة الإفريقية الجنوب-صحراوية، (من خلال أقنعة - رموز - صور - ورسوم بشرية نادرة). لا يمكن، في هذا المقام، أن نختار بين عديد الفرضيات التي طرحت، كما لا يمكننا أيضا أن نلغيها جميعا.

#### IV -المرحلة المتوسطة من النيوليتي: Le Néolithique Moyen

يمثل التوطن في عموم الصحراء، بما في ذلك مناطق الحضارة القفصية القريبة من الصحراء، قطعة لفترة تمتد ما بين 9000 و7000 ق.م حسب المناطق.

إن هذه القطيعة تفسر في الظروف الحالية، كما في الصحراء الجنوبية حيث المناخ الأمثل كان في الفترة ما بين 8500 و7500 ق.م (26) ذلك أن موقع تميت (temet) بحضبة العير شمال النيجر مثلا، كان مغطى ببضعة أمتار بصخور المشطوريت (diatomite) بعد 8500 ق.م. والأسباب متعددة: جفاف في الشمال، رطوبة مفرطة (وظروف معيشية غير ملائمة، واندثار مواقع اكتسحت بفعل عوامل طبيعية استثنائية) في الجنوب. ويمكن أن نفكر أيضا في وجود عتبة محتملة للبقاء (survie). في هذه الصحراء المترامية الأطراف: لم تتمكن المجموعات البشرية أن تتزايد وتنمو بطريقة طبيعية في بداية الهولوسان (Holocène) لكي تعيش وتبقى في وسط صعب.

إن هذه المجموعات نفسها بقيت تعيش على اقتصاد يرتكز أساسا على الصيد، أما تربية الحيوانات فقد كانت دون شك لاحقة لفترة الجفاف التي ظهرت جليا خلال الألف الثامنة ق.م. ومن تحليل العلاقة المتبادلة بين نمط المعيشة والاقتصاد من جهة، والديمغرافيا من جهة أخرى، تتضح أكثر المشاكل صعوبة وتعقيدا في بدايات النيوليتي الصحراوي.

ومهما يكن من أمر، فإن النيوليتي بدأ يظهر في إفريقيا الشمالية من الألف الثامنة إلى الألف الخامسة ق.م، وقد وصل إلى المغرب القلسم (موقع عين الناقة-Ain Naga) في منطقة مسعد جنوب شرق الجلفة في حدود 7500 ق.م ثم إلى وادي النيل، ليكتسح عموم الصحراء، باستثناء-على ما يبدو-بعض السهول التي تتميز برطوبة عالية أو تلك التي غمرتها الفيضانات كلبية والتي تقع جنوب خط عرض 18° شمالا. وفي هذه الفترة، ساد بالصحراء الجنوبية المناخ الأمثل لنمو النبات (27)، خاصة وأن النيوليتي الصحراوي يغير من درجته وطبيعته.

إن الثورة النيوليتية الحقيقية في المنطقة والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بالتدجين قد حدثت -دون شك- في بداية الألف السابعة (7) ق.م، فالتدجين هو الذي يحافظ على النمو الديمغرافي، والتغيرات في نمط المعيشة، واحتلال المساحات الواسعة من السهول. إن اقتصاد الصيادين - القطافين في مرحلة القنص والقطف يأتي في المقام الثاني. حيث نجد من الآن فصاعدا، في السهول النيوليتي ما لا نعرفه إلا في الكتل الجبلية وما جاورها. فالمواقع الأتفة الذكر المألوفة نوعا ما والمحصورة في مناطق التوسع أصبحت كثيرة وكثيفة وبالأخص في الصحراء الجنوبية.

## **1- استئناس الحيوانات: (Domestication)**

فيما يتعلق بجذور التدجين في الصحراء، فإن معلوماتنا غير دقيقة. فالانطباع الأول يرجح وجود مركز ابتكار أو توسع انطلاقا من الصحراء المصرية والكتل الجبلية الوسطى في قلب الصحراء الكبرى ويحتمل أن يعود ذلك إلى الفترة ما بين 7500 إلى 6500 ق.م<sup>(28)</sup>.

بعد هذه الفترة اكتسح التدجين كامل الصحراء الجنوبية في مراحل عديدة، انطلاقا من كتلة الهوقار - الطاسيلي في اتجاه الجنوب والجنوب الشرقي، أي نحو شمال النيجر، فمنخفضات تنيري (Ténéré) شمال شرق النيجر، ربما تكون قد عرفت الاستئناس الحيوان في فترة تعود إلى ما قبل 6000 ق.م، أما هضبة العير، حسب الباحث الفرنسي ها. لوت (H.L'Hote) فإن الاستئناس يكون حاضرا بها في حدود 5000 ق.م. لكن في الصحراء الجنوبية الغربية (كالأزواك - والتلمسي "وهو أحد روافد نهر النيجر وتشيت (Tichitt)، والصحراء الغربية الموريطانية) لا نجد في هذه المناطق أي أثر أركيولوجي لحيوانات مستأنسة قبل 4000 ق.م، وإلى الجنوب من هذه المناطق المذكورة آنفا، فإن أولى ملامح الاستئناس تعود ربما إلى 3000 ق.م. ونلاحظ هنا أن الرسوم الصخرية تبين أن التوطن والاستقرار عن طريق شمال الصحراء الاطلنطية (كالصحراء الغربية - وشمال موريطانيا، إلى الأدرار) يعود إلى فترة سابقة لـ 4000 ق.م.

## **2- الزراعة: (Agriculture)**

إن زراعة الدخن أو الذرة البيضاء (Mil Pénicillaire) ظهرت في هذه الفترة في منطقة تقع بين شمال موريطانيا إلى شمال النيجر مروراً بالمناطق المتاخمة لوادي الأزواك الذي تنحدر مجاريه العليا من جنوب الهقار<sup>(29)</sup>، لكن لا توجد أية أدلة ملموسة عن تدجين الزراعة قبل 3000 ق.م، كما لم يصاحب هذا التدجين أي انقلاب ثقافي أو اقتصادي والذي يمكن أن يكون له علاقة بممارسة النشاط الزراعي وهي الحالة التي نجدها في أواخر النيوليتي.<sup>(1)</sup>

وقد حاول العديد من علماء الآثار، من خلال أبحاثهم أن يثبتوا وجود الزراعة في الصحراء خلال فترة الهولوسان الأوسط وحتى القديم بعدة مواقع، والفضل في دراسة أغلب هذه المواقع يعود إلى الأستاذ غنبريال كامبس (G.Camps) ومن أبرز هذه المواقع: أمكني<sup>(30)</sup> (Amekni) الذي يبعد بحوالي 10 كلم عن تيت (Tit)، عند أطراف قمة أتاكور، وهو موقع واسع المساحة، يقع بالقرب من ملتقى وادي أمكني ووادي تاكيوين (Takiouine). وقد أعلن عن اكتشاف الموقع سنة 1964م من طرف الباحث باكو (M.Baccou) أما التنقيب فقد جرى في سنتي 1965م و1968م من طرف مركز الأبحاث في الأنثروبولوجيا وما قبل التاريخ (CRAPE) ويتبين من خلال التراكم الأركيولوجي (Dépôt) التطور المستمر لصناعة غنية بأنواع من الأدوات. إن أمكني هي نموذج للمرحلة القديمة من النيوليتي الصحراوي-السوداني (حيث يعود أقدم تاريخ للاستقرار بهذه المنطقة إلى 8670 + أو -150 ق.م). أما المستويات الحديثة فهي مؤرخة بحوالي 5500+ أو -250 ق.م.

ولقد تأكد حضور العنصر الزنجي الشكل (Négroïde) من النموذج السوداني في نهاية الألف السابعة ق.م. وهذه العناصر البشرية كانت تعيش على الصيد والقطف ومن المحتمل جدا أنها مارست الزراعة: هذا ما تشهد عليه مجموعة من الآلات،

وأدوات السحق وبقايا من لقاح (غبار الطلع-Pollens) النجيليات-Graminées (وهي نباتات من وحيدات الفلقة تشمل النباتات الحبية والعلفية)، وجدت في المستويات القديمة، حيث أن حجمها لا يتطابق مع أية نجيليات صحراوية. أما بالنسبة للفخار فيوجد بكثرة كما يذكر غبريال كامبس ويتطابق مع هذه الفترة بالذات ويتخذ أشكالا بسيطة، وكروية، وأما زحرفته فهي رتيبة ومملة استعمل فيها المشط (Peigne).

أما الأدوات الحجرية المصقولة فقد صنعت من الصخور البركانية المحلية ومنها صخر السبج (وهو حجر زجاجي أسود-Obsidienne) وصخر الكوارتز. إلى جانب مجموعة صغيرة من أدوات أخرى كالتصيلات، وحجر قزميات الهندسية وحاملات السهام، والحصاة الملساء.<sup>(31)</sup>

وهناك مواقع أخرى اكتشفت في كتلة الحفار من طرف لومتر<sup>(32)</sup> (J.P.Maitre) منها المعاصرة لموقع أمكي ومنها الأقدم منه وهي : منيات بافينا (Meniet Baguena V) : تيميدوين (Timidouine) : ويؤرخ الموقعان بفترة تتراوح ما بين 8100 + أو - 130 ق.م و 6050 + أو - 100 ق.م، وموقع أبولاق 2 (Abouleg II) ويؤرخ في 6860 + أو - 100 ق.م، وموقع تين أمنصر (Tin Amensar) ويؤرخ في 6500 + أو - 250 ق.م، وأخيرا موقع تيويريرين (Tiouiririne) ويؤرخ في الفترة من 6050 + أو - 100 ق.م إلى 5300 + أو - 100 ق.م، وهذه المواقع كلها تنتمي إلى النيوليتي ذوالملاح الصحراوية - السودانية في الصحراء الوسطى.<sup>(2)</sup> وتجدر الإشارة هنا أن الرسوم الصخرية التي تظهر مشاهد القطف أو الحصاد والتي تعود إلى الفترة الرعوية (Epoque Pastorale) بالطاسيلي نادرة جدا .

إن هذه الإشارات بطبيعة الحال وهمية وغير واقعية، ذلك أننا يمكن أن نتصور مثلا، أن مجموعات صغيرة من السكان كان بإمكانها أن تبتكر أو تستورد الزراعة من النيوليتي في مرحلته الوسطى. هل كان ذلك من منطقة النيل؟ وهل هناك مؤثرات شرق -غرب باتجاه الصحراء التشادية -النيجرية قبل 5000 ق.م؟ على كل تبقى هذه التساؤلات مطروحة. غير أن التوسع نحو الساحل الإفريقي خلال تلك الفترة، لا يبدو أنه حدث إلا في أواخر النيوليتي.

### 3-الصيد:(La Pêche)

يلعب الصيد دورا هاما في الصحراء الجنوبية من المحيط الأطلسي غربا إلى نهر النيل شرقا ففي هذه المنطقة المترامية الأطراف يوجد عدد هام من البحيرات الشاسعة المساحة بحيث أمكنها أن تجمع حيوانات مائية (Faunes Aquatique) كانت بمثابة عامل جذب للإنسان إلى حوالي 3000 ق.م. فقد تم العثور على هياكل عظيمة لأسماك يصل طولها إلى 1 متر، ومن بين هذه الحيوانات البحرية نذكر: التمساح وفرس النهر وطيور مائية متنوعة. فخرطة توزيع الخطاف (harpons) المصنوع من العظم والذي يستعمل لصيد الأسماك ذات دلالة كبيرة، حيث نلاحظ التداخل بين علم البيئة القديم وعملية الإعمار في الصحراء النيوليتية.

إن الصحراء في هذه الفترة كانت بوتقة مثالية للسكان: فأقدم البقايا الأثروبولوجية في تين هاناكاتن مثلا (التي تقع على خط عرض 23.50° شمالا) أي على مدار السرطان تقريبا، تظهر الأصول المتعددة لإنسان هذه المنطقة، سواء الشمالية منها أو الجنوبية. ومن جهة أخرى فإن الرسوم الصخرية التي تمثل " مريو الأبقار في الطاسيلي" (Bovidiens) (أنظر الشكل 2) تبين أنسنة معقدة فنجدها متزامنة أو متعاقبة: الشبه أوروبي (Europoïde)، الزنجي (Négroïde)، والنيلي (Nilotique) (أي متعلقة بنهر النيل).

ويبدو أن الجنوب الغربي من الصحراء كان أهلا تدريجيا بالعناصر التي تنحدر من الشبه مشقي (Mechtoïdes) ابتداء من 7000 ق.م ومنهم الرعاة (Pasteurs) والصيادين (Pêcheurs) دون أن نتأكد من توزيعهم بدقة، (شكل 3) وعن الأثروبولوجيا الفيزيائية نجد عناصر عدة منها<sup>(33)</sup>:

- ما قبل المتوسطيين (**Protoméditerranéens**): وقد ينحدرون من القفصيين أولاً، (وقد اصطلح علماء الأثروبولوجيا على تسميتهم بالبربر القدماء) خلال المرحلة المتوسطة من النيوليتي.

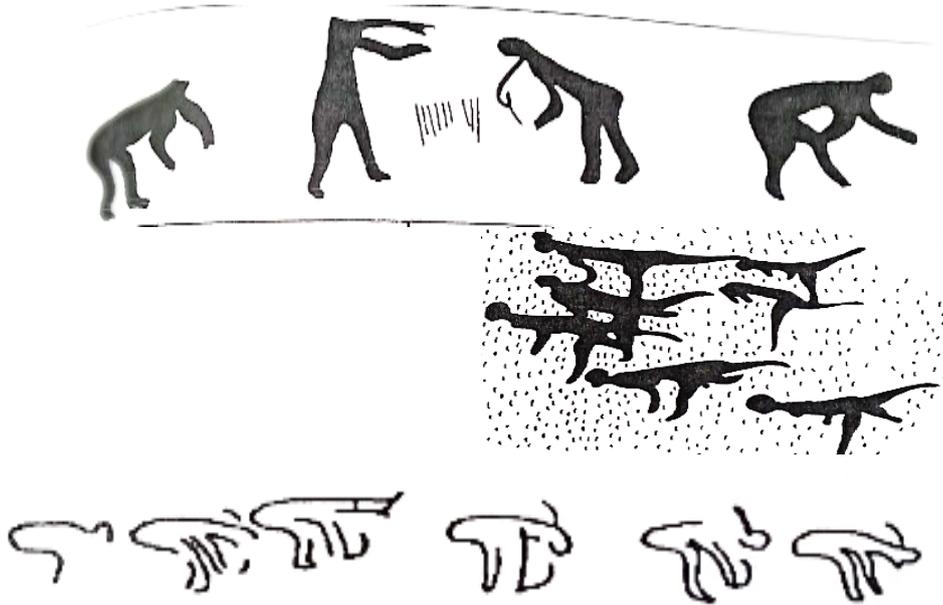
- **الشبه مشتي (Mechtoides)**: حيث يبدو أن جيناتهم (Gène) أو مورثاتهم امتزجت فيما بعد بجينات سكان الساحل الإفريقي كما أورد الباحث ديتور (Dutour) سنة 1984.

- **السودانيون الزنجيون (Soudanais Négroïdes)**.

- **النيليون (Nilotiques)** (نسبة إلى نهر النيل): ويتميزون بالنعافة ومنهم عناصر يحتمل أن يكونوا أسلاف شعوب البولس<sup>(34)</sup> (Peuls). وخلال أربعة ألفيات (Millénaires)، تمكنت تلك المجموعات (سواء كانت شعوب، قبائل، وأسر) والأفراد من التنقل: لذلك ففي حوالي 6500 ق.م كانت منخفضات التينيري (شمال شرق النيجر) وهوامشها أهلة بمربي الحيوانات الذين يحتمل أنهم قدموا إليها من الطاسيلي وقد سكنوا هضبة العير، ثم عبروها ليقيموا في جنوب شرق السهول الرطبة لوادي الأزواك في أقصى الجنوب الجزائري مع الحدود النيجرية والمالية، ثم امتزجوا مع العناصر السودانية التي كانت حاضرة بالمنطقة قبل أواخر النيوليتي.<sup>(35)</sup>

وقد شهدت المرحلة المتوسطة من النيوليتي، حلقات متتالية تخللتها فترات جفاف قصيرة وانتهت حوالي 4000 ق.م بفترة قصيرة جافة جدا. هذه الحالة المناخية كانت نهائية في الصحراء الشمالية، وفي المقابل فإنها لم تمتد في الصحراء الجنوبية أكثر من قرنين من الزمن، ولما انتهت بدأ التوزيع الغير منتظم للسكان.

فالاقتصاد ونمط المعيشة يتغيران بالتدرج، وتحت تأثير الابتكارات الجديدة كالعربات، والحصان، والمعدن، وبالأخص الزراعة، فإن التوجه نحو الجنوب بدأ يتعمم.



شكل 2: مريو الأبقار في الطاسيلي: ثلاث مشاهد للقطف والحصاد.

Vernet (R.), op.cit, p. 184

## V-أواخر العصر النيوليتي (المرحلة الأخيرة) Le Néolithique Récent

### 1- الألف الرابعة قبل الميلاد:

تعتبر الألف الرابعة قبل الميلاد بالصحراء الجنوبية المرحلة الأخيرة الملائمة فعلا لحياة الإنسان فبداية من 3800 ق.م وخاصة بين 3500 و3000 ق.م سمح المناخ الأمثل بازدهار زراعات جديدة، لكن نهايته أي بعد 3000 ق.م أحدثت أول مشهد صحراوي فعلا، وبعد ذلك كانت فترات السكون والهدوء دائما جنوبية، في حوالي 2800 أو 2500 ق.م وربما في 2000 ق.م.

ولكنها لعبت أدوارا رئيسية في عمليات الاعمار على امتداد خطوط العرض من 20° إلى 16° شمالا، وباتجاه الجنوب أكثر أي نحو خط عرض 14° شمالا فإن التنقيبات المنتظمة أظهرت مواقع مؤرخة في هذه الفترة بالذات، وتبين أن هناك صلات صحراوية على مستوى الصناعة بالأطراف الجنوبية للصحراء الكبرى<sup>(36)</sup>. إذن استمر النيوليتي بالصحراء الجنوبية في التطور، هذا لا يعني أن النصف الشمالي من الصحراء لم يلعب أي دور: فالجبال والمنخفضات لم تكن خالية من السكان، بل مثلت محطة عبور لحركات السكان التي كانت تتجه نحو الجنوب على الدوام.

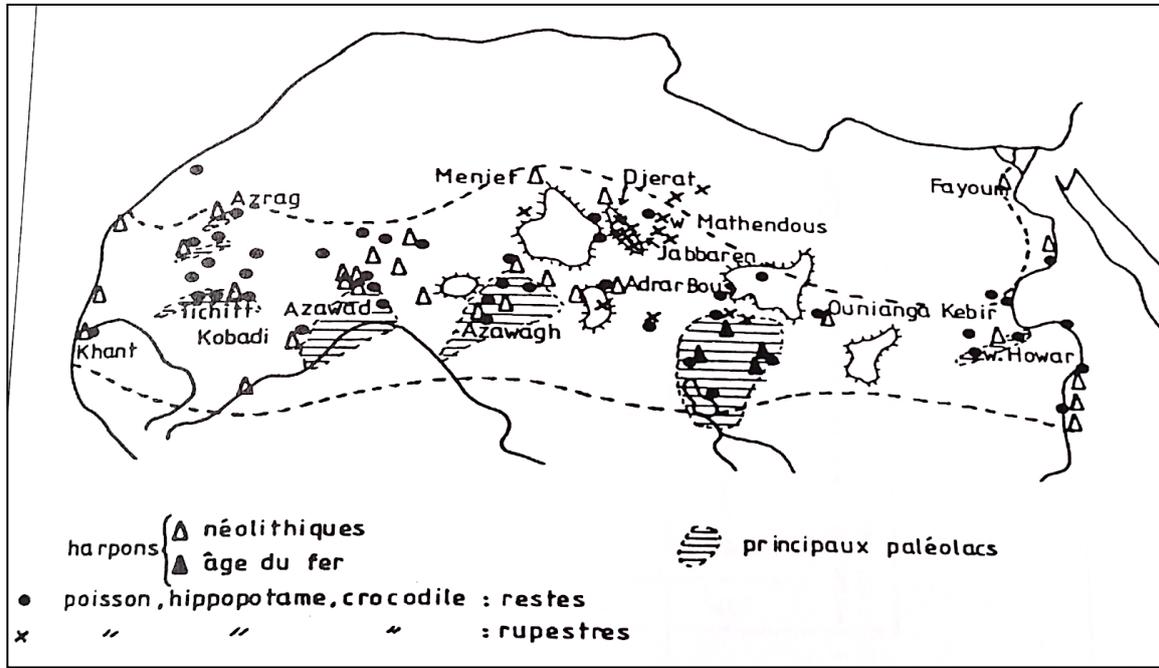
إن الاختفاء التدريجي للمراعي، ومنايع المياه الدائمة شمال خط عرض 22° قد دفعت المجموعات البشرية، مهما كانت أصولها، إلى التوجه نحو الجنوب إلى مناطق كانت أهلة بالسكان، وهي التي كانت قبل 4000 ق.م خالية من السكان. هذا ما أدى إلى ظهور عدة ثقافات منها ثقافة مربي الحيوانات حول وادي الأوزك النيجري، ويشير ذلك إلى حركات سكانية ذات أهمية كبيرة.

إن انتقال شعوب الرعاة نحو الجنوب لا يشكل حدثا مذهلا، إذ يبدو أن الرسوم الصخرية في منطقة الطاسيلي تبين أن آخر مربي الأبقار كانوا عناصر من ما قبل البربر (Protoberbères) وأن الانتقال من فترة البقرات (époque Bovidienne) إلى فترة الخيليات (époque Equidienne) - وهي فصيلة الخيل - قد حدث دون انقطاع<sup>(37)</sup>. وقد شهد النصف الثاني من الألف 4 ق.م تسارع حركة السكان، حتى بلغت هذه الحركة أوجها، فقد مثلت فعلا الأوج الديمغرافي في الصحراء الجنوبية، إن حركة إعمار المناطق الرطبة تكون قد انتهت، بينما نجد السهول الرملية بدأت تفقد سكانها حيث البرك والمستنقعات الصغيرة (Mares) مؤقتة.

تتميز هذه الفترة بتجانس ثقافي كبير وتقارب أكبر بين الثقافات حيث تعدد مواضيع الرسوم الصخرية، وأشكال الفخاريات وتنوع الزخارف، وكثرة التماثيل الحيوانية الشكل (Zoomorphes) المصنوعة من الطين المشوي، والطقوس الجنائزية، وتطور الاستقرار والحياة الحضرية، وميلاد عصر المعادن.

يبدو من خلال ما سبق ذكره، أن الصحراء كانت تمثل في هذه الفترة ما يشبه فسيفساء من شعوب متعددة، لها نمط معيشي متقارب، وتمارس نفس النشاط الاقتصادي أين يمثل الرعي وتربية الحيوانات النشاط الأكثر ممارسة، لكن يبقى القنص والصيد من النشاطات التي تحتل أهمية خاصة، إلى جانب بداية تطور الزراعة.

ويبدو أيضا أن شمال الساحل الإفريقي خلال تلك الفترة كان بمثابة بوتقة (creuset) انصهرت فيها عدة شعوب من أصول متنوعة، وفي الوسط بدأ الإعداد للمشهد البشري البارز لدخول الفترة التاريخية.



شكل 3: صيادو جنوب الصحراء Vernet (R.), op.cit, p. 184

## 2- مرحلة الانتقال من النيوليتي إلى الفترة التاريخية:

ظهرت صناعة استخراج النحاس والحديد قبل 3000 ق.م سواء كانت محلية أو مستوردة، كتلك التي تمثل العربات أو الأسلحة المعدنية الممثلة في الرسوم الصخرية مما سمح للبعض بالقول أن النيوليتي يتوقف عند حدود 4000 ق.م. وقبل ذلك فالفترة تدعى "فجر التاريخ" (Protohistoire).

أعتقد حسب رأيي، أن هذه الفكرة قد تكون خاطئة، ذلك أنه لا يوجد انقطاع حقيقي في الثقافة ونمط الحياة لشعوب الصحراء الجنوبية خلال الألف الثالثة ق.م.

وبالأحرى، ففي الألف الرابعة ق.م كانت الحضارة النيوليتية الصحراوية مستمرة، مع دمج معطيات جديدة تدريجياً. وبالتأكيد، فإن شعوب جديدة، قادمة من الفترة التاريخية (بمعنى من منطقة النيل، وقورينائية، والمغرب القديم) ظهرت وبجورتها تقنيات جديدة (كالخصان، والعربات والمعدن)، ولكن هذه الشعوب دخلت وانسابت دون انقطاع في قالب الفترة الرعوية (Pastorale) المنتهية. (38)

لا يمكن أن ننكر أن هناك تطورات، لكنها كانت بطيئة جداً ولم تغير نمط حياة النيوليتي إلا بعد التوقف التام والنهائي للجفاف، حينئذ يكون من السابق لأوانه قياس أثر هذا التجديد، حيث يحل الانقطاع.

إن مواقع التوطن والاستقرار ترتبط ارتباطاً وثيقاً بفترات الهدوء والسكون المناخية، ويبدو أنها حدثت خلال الفترة ما بين 2800 و2500 ق.م والتي تتوافق وتتطابق مع الازدهار الديمغرافي الجديد.

إن هذه الفترة كانت موسومة بتسارع النمو الاقتصادي، وانطلاق العناصر البشرية المعروفة بـ: ما قبل البربر (Protoberbères) نحو الجنوب، حيث تكيفت هذه العناصر مع ظروف الجفاف الجديدة، وتمكنت من السيطرة على المناطق التي تخلت عنها شعوب الرعاة والمزارعين من كل الإثنيات (Ethnies) والأعراف مجتمعة.

ومنذ تلك الفترة، فإن أسلاف البربر احتلوا مجاهم الحالي الذي يمتد من المحيط الأطلسي إلى الحاصرة الغربية لجبال تبستي أي على الحدود الشمالية النيجرية التشادية، وكانت هذه المنطقة أهلة بعناصر من سكان التوبو (39) (Toubous) «عناصر من عدة شعوب رحل غير مستقرين يتمركزون أساساً ما بين هضبة العير وجبال تبستي».

عرفت انطلاقة عناصر ما قبل البربر نحو الجنوب عدة مراحل والتي أمكن التعرف عليها من خلال الرسوم الصخرية وتتضمن ما يلي:

- طبقة تمثل عدد كبير من الأبقار، أما الأحصنة فهي إما نادرة جدا أو غائبة تماما، أما العربات والتيفيناغ فهي غير معروفة، ويحتمل أن تكون خلال فترة تمتد ما بين 3500 - 3000 ق.م.

- طبقة أبقار كثيرة، مع عربات وأحصنة، لكن بدون التيفيناغ (حوالي 2500 ق.م).

- طبقة تختفي فيها العربات والأبقار، أما الأسلحة المعدنية فهي حاضرة دوما، والتيفيناغ أيضا معروف (حوالي 2000 ق.م).
- أخيرا، طبقة يظهر فيها الجمل (وحيد السنام) "Dromadaire"، وقد دلت الأبحاث الحديثة المدعمة بالوثائق الأثرية أن الجمل ظهر بالصحراء منذ المرحلة القفصية (أي بداية النيوليتي)<sup>(40)</sup>، أما التيفيناغ فإما أنه اختفى أو تطور إلى نماذج لا زالت إلى اليوم مفهومة من طرف الطوارق (بعد 2000 - حوالي 1500 ق.م).

**خاتمة:** يمكن بعد هذه الدراسة الموجزة أن نخلص إلى مجموعة من النتائج نوجزها فيما يلي:

- جمعت الصحراء الجنوبية خلال فترة الهولوسان خصائص أصلية، صحيح أنها قديمة وعتيقة، ولكنها امتدت إلى فترة متأخرة.
- تجلت مظاهر الازدهار الصناعي والاقتصادي والثقافي والتنوع في الصحراء الجنوبية في فترة سابقة لتلك التي عرفتها الصحراء الشمالية والشرقية.

- إذا لم تتمكن الصحراء الجنوبية، لأسباب منطقية تتعلق بالتصحّر خاصة، من أن تمثل المنعطف ونقطة التحول في التاريخ، فإنها ساهمت وبقيسط وافر في وضع الأسس لمشاهد إنسانية وسياسية في منطقة الساحل التاريخي.

- لعبت الصحراء الجنوبية دورا أساسيا في العلاقات القديمة والمركبة بين ضفتي الصحراء الكبرى الشمالية والجنوبية.

- كانت الصحراء الكبرى تمثل فعلا في هذه الفترة ما يشبه فسيفساء (Mosaïque) من شعوب متعددة، إلا أن لها نمط معيشي متقارب، وتمارس نفس النشاط الاقتصادي أين يمثل الرعي وتربية الحيوانات النشاط الأكثر ممارسة، لكن يبقى القنص والصيد أيضا من النشاطات التي تحتل أهمية خاصة، إلى جانب بداية تدجين الزراعة.

- مثلت الصحراء خلال هذه الفترة بوتقة انصهرت فيها عدة شعوب من أصول متنوعة، أين بدأ الإعداد للمشهد البشري البارز مع بداية الفترة التاريخية.

- تسريع إيقاع الأعمال والأبحاث في هذا الاتجاه بهذه المنطقة الشاسعة، مع بذل كافة الجهود لتحديد مواضيع البحث بدقة وبالأخص تلك التي تقدم إضافة إلى مجال المعرفة.

- ضرورة تحديد تعريف دقيق للنيوليتي الصحراوي، وضبط مراحل تطور تربية الحيوانات والزراعة، وإبراز دور الديمغرافيا وحركات السكان في تطور النيوليتي الصحراوي، وفي الأخير الوقوف على نتائج الكوارث المناخية التي شهدتها المنطقة عبر العصور ومحاولة الاستفادة منها، وبالأخص الفترة التي نحن بصدد دراستها وهي فترة الهولوسان

## الهوامش:

(1) wavy line : زحرفة الفخار بخطوط متموجة، أول من عرفها الباحث أركال (A.J.Arkell) بمنطقة الخرطوم والشاهيناب، وهي حاضرة منذ المرحلة القديمة من النيوليتي في الصحراء الإفريقية من السودان إلى موريطانيا، ونجدها أيضا في عصر المعادن بغرب إفريقيا، وهذا النموذج غير معروف في الصحراء الشمالية خلال العصر النيوليتي. Gourhan (André Le roi), Dictionnaire de la Préhistoire, Presses universitaires de France, Paris, 1988, p.1169.

(2) Durand (A.), et Lang (J.), Approche critique des méthodes de reconstitution paléo climatique, Bull. Soc. Géol. France, 1986, t II, p.267-278.

(3) Chamla (M.C.), les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes, mém.IX, C.R.A.P.E, 1968, p.189.

- (4) المقصود بالصحراء الجنوبية هنا : موريطانيا، مالي، النيجر، تشاد، و صحراء السودان جنوب الهقار من الطاسيلي غربا إلى فزان شرقا.
- (5) Vernet (R.), Néolithique : le Sahara, un désert vert ? C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989, pp.83-101.
- (6) Malley (J.), « 20.000 ans d'évolution des climats du Sahara central aux savanes tropicales humides », Sud Sahara Sahel nord, C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989, pp.34-57.
- (7) Hugot (H.J.), le Sahara avant le désert, éd. Des Hespérides, Paris, 1974, pp.83-86.
- (8) Ibid., p.83.
- (9) سحنوني، محمد، ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، (د.ت.)، ص82.
- (10) المرجع نفسه، ص12.
- (11) Vaufrey(R.), Préhistoire de l'Afrique, t.I, éd., Masson, Paris, 1955, pp.88-89.
- (12) Tillet (Th.), L'Atérien Saharien, essai sur le comportement d'une civilisation paléolithique face à l'accroissement de l'aridité, Bull. Soc. Géol. France, 1989, t.V, pp.91-97.
- (13) Dutour (O.), Hommes fossiles du Sahara, C.N.R.S, Paris, 1989, p.274.
- (14) Rognon(P.), Variations de l'aridité au Sahara depuis 125.000 ans en relation avec les contraintes orbitales et glaciaires, Bull. Soc. Géol. France, 1989, t.V, pp.13-20.
- Op.cit., p.1175.. (15) Gourhan (André Le roi),
- (16) سحنوني محمد، المرجع السابق، ص 12.
- (17) نفسه، ص 132.
- (18) Gourhan (André Le roi), op.cit, p.1194.
- (19) Alimen (H.), Zmeilet el-Barka, halte saisonnière de chasseurs au VI<sup>e</sup> millénaire, L'Anthropologie ; t.84, n° 2, 1980, pp.198-242.
- (20) سحنوني محمد، المرجع السابق، ص 131-132.
- (21) Aumassip (G.), Maitre (J.P.), Contribution à la Préhistoire de l'Ahaggar, Mémoire du CRAPE, XVII, Paris, 1974, p.189.
- (22) Aumassip (G.), Heim (J.L.), les squelettes néolithique de Tin Hanakaten, Tassili N'Ajjer, Algérie, CR. Acad. SCI., Paris, t.309, ser.III, 1989, pp.187-190.
- (23) Gourhan (André Leroi), op.cit., p. 517.
- (24) Camps (G.), Préhistoire de l'Afrique du nord et du Sahara, Paris, 1974, p.193.
- (25) L'Hote (H.), Le peuplement du Sahara néolithique d'après l'interprétation des gravures et des peintres rupestres, jal de la Société des Africanistes, Paris, t.XI, 1970, pp.91-102., Camps (G.), op.cit., p.258.
- (26) Roset (J.P.), Néolithisation, Néolithique et post-Néolithique au Nigéria nord-oriental, Bull. AFEQ, 1987, 4, p.206.
- (27) Maley (J.), op.cit., p.45.
- (28) Muzzolini (A.), les débuts de la domestication des animaux en Afrique : faits et problèmes, Ethnozootechnie, Paris, n° 42, 1989, pp.7-22.
- (29) Marchais (L.), Tostain (S.), le Sahel ouest-africain, foyer principal de la domestication des mils pénicillaires, C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989, pp99-101.
- (30) Gourhan (A.L.), op.cit., pp.38-39, Roset (J.P.), à L'Adrar Bous, (X<sup>e</sup> mill.b.p.), éd. Dallas, 1987, pp.231.
- (31) Camps (G.), Amekni, Néolithique ancien du Hoggar, mémoire du CRAPE, 10, Alger, Maitre (J.P.), Inventaire préhistorique de l'Ahaggar, I, Libyca, pp.127-138.

(32) Loc.cit.

(33) Dutour (O.), op.cit, p.274.

(34) Peuls: مجموعة شعوب رعاة ومستقرين متناثرة في إفريقيا الغربية من السنغال إلى الكاميرون. Larousse Illustré, Librairie.

Larousse, Paris, 1990, p.1502.

(35) Paris (F.), la région d'In Gall-Tegidda, P.A.U. III. Les sépultures du Néolithique final à L'islam, Etudes Nigériennes, n° 50, Niamey, 1984, p.198.

(36) Gourhan (A.L.), op.cit., pp.775, 779.

(37) Muzzolini (A.), L'art rupestre des massifs centraux sahariens, B.A.R, Cambridge, 1986, Camps (G.), Les chars sahariens, images d'une Société aristocratique, Travaux LPMO, Aix en Provence, 1987, pp.107-124.

(38) Grebenart (D.), Les premiers métallurgistes en Afrique occidentale, éd. Errance et Nouvelles éditions Africaines, Paris, 1988.pp.151-188.

(39) Larousse, op.cit, p.1624.

(40) Camps (G.), Berbères au marges de L'histoire, éd.des hespérides, 1980, p.126.

#### قائمة المصادر والمراجع:

–باللغة العربية:

1- سحنوني محمد، ما قبل التاريخ، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، (د.ت.).

2- سلطان محسن، عصور ما قبل التاريخ، ط.5، منشورات جامعة دمشق، 2009.

–باللغة الأجنبية:

3) Alimen (H.), Zmeilet el-Barka, halte saisonnière de chasseurs au VI<sup>e</sup> millénaire, L'Anthropologie ; t.84, n° 2, 1980.

4) Aumassip (G.), Maitre (J.P.), Contribution à la Préhistoire de l'Ahaggar, Mémoire du CRAPE, XVII, Paris, 1974.

5) Aumassip (G.), Heim (J.L.), les squelettes néolithique de Tin Hanakaten, Tassili N'Ajjer, Algérie, CR. Acad. SCI., Paris, t.309, ser.III, 1989.

6) Camps (G.), Amekni, Néolithique ancien du Hoggar, mémoire du CRAPE, 10, Alger.

7) Camps (G.), Berbères au marges de L'histoire, éd.des hespérides, 1980.

8) Camps (G.), Préhistoire de l'Afrique du nord et du Sahara, Paris, 1974.

9) Camps (G.), Les chars sahariens, images d'une Société aristocratique, Travaux LPMO, Aix en Provence, 1987.

10) Chamla (M.C.), les populations anciennes du Sahara et des régions limitrophes, mém.IX, C.R.A.P.E, 1968.

11) Durand (A.), et Lang (J.), Approche critique des méthodes de reconstitution paléo climatique, Bull. Soc. Géol. France, t.II, 1986.

12) Dutour (O.), Hommes fossiles du Sahara, C.N.R.S, Paris, 1989.

13) Grebenart (D.), Les premiers métallurgistes en Afrique occidentale, éd. Errance et Nouvelles éditions Africaines, Paris, 1988.

14) Gourhan (André Le roi), Dictionnaire de la Préhistoire, Presses universitaires de France, Paris, 1988.

15) L'Hote (H.), Le peuplement du Sahara néolithique d'après l'interprétation des gravures et des peintres rupestres, jal de la Société des Africanistes, Paris, t.XI, 1970.

- 16) Hugot (H.J.), le Sahara avant le désert, éd. Des Hespérides, Paris, 1974.
- 17) Larousse Illustré, Librairie Larousse, Paris, 1990.
- 18) Malley (J.), « 20.000 ans d'évolution des climats du Sahara central aux savanes tropicales humides », Sud Sahara Sahel nord, C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989.
- 19) Maitre (J.P.), Inventaire préhistorique de l'Ahaggar, Libyca, I.
- 20) Marchais (L.), Tostain (S.), le Sahel ouest-africain, foyer principal de la domestication des mils pénicillaires, C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989.
- 21) Muzzolini (A.), L'art rupestre des massifs centraux sahariens, B.A.R, Cambridge, 1986.
- 22) Paris (F.), la région d'In Gall-Tegidda, P.A.U. III. Les sépultures du Néolithique final à L'islam, Etudes Nigériennes, n° 50, Niamey, 1984.
- 23) Roset (J.P.), Néolithisation, Néolithique et post-Néolithique au Nigéria nord-oriental, Bull. AFEQ, 4,1987.
- 24) Roset (J.P.), à L'Adrar Bous, (X<sup>e</sup> mill.b.p.), éd. Dallas, 1987.
- 25) Rognon(P.), Variations de l'aridité au Sahara depuis 125.000 ans en relation avec les contraintes orbitales et glaciaires, Bull. Soc. Géol. France, 1989.
- 26) Tillet (Th.), L'Atérien Saharien, essai sur le comportement d'une civilisation paléolithique face à l'accroissement de l'aridité, Bull. Soc. Géol. France, 1989.
- 27) Vaufrey (R.), Préhistoire de l'Afrique, t.I, éd., Masson, Paris, 1955.
- 28) Vernet (R.), population de Sahara méridional à l'holocène, in CNRPAH, Alger, 2001.
- 29) Vernet (R.), Néolithique : le Sahara, un désert vert ? C.C.F. D'Abidjan, éd. Abidjan, 1989.